

## اين البحر

خطاب لمشيء الحساء الفاه في حفلة جمعية تربية النماى الازرودة كسبة في حمص في اب

حياكم الله - مشر الفضلاء والفاضلات - وحيا معاهد الخير ومعافل الادب - حيا الاعمال العظيمة والمبادئ السامية - وحيا القائمين بها والعاملين بوجوبها - ووقاهم واياها شر الاتخذال

بيروتي محبيكم - يا مواطني اجدادي

- بيروتي عاش اجداده في حمص اعواماً عديدة يسرّ اليوم بزيارة وطن الاجداد - يسرّ بلمس تربهم وتقعد اما كتبهم يسرّ برشف ما نهم ونشق هواهم بالاستشارة بشمسهم ومناجاة ارواحهم - ويسرّ بالاكثر بمعرفة نسل مواطنيهم - شاكر الفرصة التي اتاحت له هذا الحظ والجمعية التي دعته الى هذه الزيارة

كان في حمص من مئتي وعشرين سنة رجل يسمى سعد اليازجي ضاقت في وجهه رحاب هذه المدينة فعادها الى لبنان واقام كاتباً عند الامير احمد المعني اخر امراء الجبل المعينين ثم انتقل الى الكتابة عند الامير حيدر شهاب اول امرائه الشهابيين فهذا الرجل رزق ثلاثة اولاد دعاهم جنيلات ونجم وباز - فاحتفظ نسل الاولين بالاسم اليازجي ومكثوا في لبنان ومنهم الشيخ ناصيف وولاده المشاهير والشيخ سليم الصيرفي الشهير - واكتفى نسل الثالث بالياز وتوطنوا بيروت - ومن هذا النسل هذا العاجز

فحدثكم اذا ليس بغريب عنكم - هو بيروتي حمصي سوري يعتبر سوريا بجمالها وطناً له والسريريين كلهم اخوانه - بل الارض كلها عنده وطن والعالم جميعهم اخوان هو بيروتي - يا سادة - عاش على شاطيء بحر الروم - فراقب مده وجزره وتمثل فيه العبر - لاحظ حركات الزوارق والمراكب والبواخر والصيداين والبجارة والمتزهين والمغتسلين فضلاً عن المهاجرين والراجعين وتغن في كل ذلك وتأمله ملياً فخيّل له ان البحر يتألم وان الموج تنهد والدوي نين - وتراوى له في رغبة الما - لدى التطامه بالصغر ان البحر حائق على البشر وان نبئون الله غاضب يتوعد بالعقاب

وهذا ما احدثكم عنه الآن - ولا غرو اذا اتخذته موضوعاً لخطابي ودعوة الجمعية قد بلغتني في وقت كنت فيه مريضاً ان من الامم - وكانت الملايا مضئكة جسي واكبنا مؤثرة بي - وكان الدور مسئولياً عليّ والدوي رأسي - كلني مقيم بجانب

البحر عند اشتداد النور .

وحديثي معكم يجمع بين الحقيقة والخيال هذا يلامسه لساً وتلك تستقر فيه . هو الثوب الذي يرتديه وهي لباب معانيه . ومزج الحقائق بالخيالات ملذ للعقل والقلب معاً والامان عقل وقلب .

يتنزه البيروتي على شاطئ . البحر كما يتنزه الحمصي على ضفة النهر وكلاهما يبغيان ترويح النفس من عناء الاشغال وتنامي اكدار الحياة ولو برهة قصيرة . فيكتفيان غالباً بما يبدو لهما من مظاهر المتوسط والمعاصي . ولهما يعنان النظر في ما سوى ذلك . قلما يتعمقان بافكارها او يدترسلان بالافتكار ولو كانا اليه رخاء ناعمي بال . على ان منظر الماء لا سيما عند المساء . يجب الانسان بالتفكير . ورب فكر مصيب يفيد الناس ان عملوا بتوجه عظمى الفوائد

.....

كنت مرة اتنزه على شاطئ . البحر عند مغيب الشمس وكان النسيم لطيفاً والجزر صافياً والطبيعة كلها تترجم بحمد الله فتمشيت مسافة راق لي بعدها الجلوس فاستندت الى صخر يغسل الموج رجله ويرغي حوائيه كرفوة الصابون في اليد النظيفة . جلست اودع ذكاً . وهي على اهبة الغيب تصفر من ألم النوى وترسل اشعتها سهاماً . من خلال غيبات الافق كفتاة راقية تحاول التملص من رق الحجاب . وما لبثت ان توارت عن النظر واورثت المكان وحشة تنقبض لها النفس . ثم لشرق القمر بجباله الساحر فانار البحر وزاده جمالاً . فضوت كل انتباهي اليه واذا به هاج واهج كأنه يتألم . وكان لدوي وجهه رنة شبه بالانين . فتأثرت . وتثيت لو علمت مما يتهدد البحر وما بين الموج . ما الذي يضغط عليه ويحرجه فيخرج منه النفس تنهداً عميقاً . وقتت في نفسي اهي فواعل الطبيعة فقط تحركه ام مفاسد الانسان ايضاً تؤلمه . على انه جاد سائل لا يشعر ولا يعقل . وبعد ان فكرت فيه ملياً وثقلت بتنفسه تنفس الامة عدت الى نفسي فرأيتني قد اطمت المكث فهمت بالسير . وما كدت لنهض حتى زلت قدمي فاستطقت جاثياً على ركبتني وباسرع من فعل الكهربا . تراءى لي اله البحر نبثون معبود الاقدمين وبصوته الجهوري ناداني . وقال - لا تياس ايها الانسان فان الالهة لا تضن بالحكمة على طالبها ولا تحرم الحق الباحثين عليه . ان ما سمعته من دوي البحر وثقلته انبأ هو انين مجازي لا

ريب فيه . فاصغ اليّ لاقص عليك لماذا يئن البحر  
فدهشت يا سادتي من صوت هذا الاله وبهرت عيناى واستولى عليّ الدهول .  
فاحنيت رأسي احتراماً واصغيت بكليتي اليه . وكدت امسك انفاسي لئلا تعيقني من  
فهم ما يقول

.....

قال نبتون - يئن البحر من قومك يا ابن سوريا يشهد من جوركم عليه . يتألم  
من احتقاركم اياه . انتم يا نسل الفينيقيين يا احفاد معززيه يا من جار عليكم الزمان  
فاستلتم له ورواكم الدهر بالارزاء فرضختم لها . وعشم اجيالاً عديدة . منتظرين الفرج  
من غيركم لكم . ومتكئين على الغير حتى بكنوتكم . لاجاكنم يتأثر البحر كثير منه  
لنفسه . فاكرأ حرمة اجوار . نكم يتسنى الخير والعز تقيه لهما . لحمل اثقالكم يوطي .  
ظهوره ويذل نفسه . ولا يوا نغاياتكم يفتح فاه . يزين سواحلكم ويغسل اقدامها  
ويقي اساككم شر تعن الاقدار . يصل بلادكم ببلاد ارقى منها . وينقلكم الى  
حيث تاتفعون

كان بحرکم ولا يزال صلة التمدن بين الشرق والغرب . نقل مفاخرکم قديماً يوم  
كانت لكم مآثر تفخرون بها - نقلها الى طالبيها ومستحقيها . واليوم يعيد اليكم ما لكم  
مع رباه . بامانة يعيده لكم وبرغبة وسرور . نقل مبادئ . وسى الكلام ويسوع المسيح  
ومحمد الرسول . نقل الوحي والنبوة والارشاد . نقل العاوم والمعارف القديمة مع الاداب  
والفضائل السامية . نقلها كلها الى اوربا واذاعها في كل الارض فتهدب اوانك الناس بها  
واستفادوا منها . واهماتموها انتم حتى كدتم تنسونها . ولولا القليل لانكرها بعضكم  
وخالها من غير هذه البلاد . تركتم كثيراً من محاسنكم وما اكتفيتم بالاحتفاظ بباونكم  
فقط بل اضمتم اليها كثيراً من مساوى الافرنج وتمسكنم با جاءكم منها مع حسناتهم وآثر  
بعضكم بعضها عليها اي بعض تلك على هذه

بحرکم يا بني سوريا يضيف لتهارکم باقدارها ويستقبلها على الرحب والسعة ولوتلوت  
بدما . الاحجار والتربة . ويعيد مياهها اليكم بالعيوم بمجرة . قطرة . يعيدها نظيفة  
صافية . يأخذها من تحتكم ويردها من فوقكم . ولولاها لكانت بلادكم قفراً جرداً .  
لا يقطنها حي ولا يسكنها انسان وانتم للان ما انقتم وسائل الانتفاع منها ولا احسنتم

ري الزروع ولا استخدمتم قواها لمصانكم . حتى للشرب لم تطهرها كفاية بعد .  
 تلقون اليه اقدار الاسا كل وتصطادون منه السمك الفاخر تستخدمون فيه رعاكم  
 فيكدرن مجتازيه الا من كان لابسا قبعة وتنتظرون التركي ليبيع جماسهم ويقي  
 المسافرين اضرارهم وانتم لا تهتسون حتى ولا بهذيب السهم ومنع بذانتهم وتلطيف  
 خشونتهم . تستغدون سمكه الذيذ بتوربيكم ولا تعدون منكم صحافين يداغون  
 عن جرائم الصيادين ولكم من ابناء بيروت وطرابلس وصيدا وصور وعكا وحينفا ويافا  
 ممن لا يوانسه في العام بزيارة

كم منهم ممن لا يغسلون ثيابه ولا يقروضون بالسباحة فيه ولا يعلمون حتى كيف  
 تكون . على انها من افضل وسائل حفظ الصحة وتقوية الجسم والعقل  
 حسبه ان القوي فيه ياكل الضعيف حسبه تمرراً من هذا النظام الطبيعي الحيواني .  
 فلا تريدوه بعصيتكم وتقاطعكم مرارة روحية .

ان اخشاب زوارقكم ومراكبكم من غير بلادكم ان مسايرها ومقاذيفها واشرعها  
 كلها من خارج سوريا . والبواخر لا يد لكم فيها والراقي لولا الافرنج لا عرفتموها  
 انه ياتيكم بكل احتياجاتكم كأنكم اطفال ولا يأخذ منكم ما يوزي قيم  
 وورداته . ياتيكم بالابرة وبالكشتبان بالنسوجات وبالاداني . ياتيكم بالثياب محاطة  
 وبالمعادن مشعرة خالصة حتى باقمح والشعير بالسمن والزيت ايضاً . يأخذ حريراً  
 لولا جودة الطبيعة لما كان يشري اي لافضل لكم فيه لانكم لا تحسون جيداً تربية  
 دوده . يأخذ الحنطة والحبوب بالرخص ولولا الرخص لما اشتراها تاجر غريب . ومخراكم  
 لا يزال كما كان على عهد نوح ومزروعاتكم لولا طيبة الارض لما كتفكم مؤونة  
 الخوع

يأتيكم البعير يا بني سوريا بالنورين الحقيقي والجازي بالبترول وبفحم الحجر  
 وبادوات ومواد الاستلين والغاز والكهرباء . وبالعلم والتهذيب . ياتيكم بحسرات  
 عديدة فلا تقبلون منه شيئاً مفيداً الا وتسألونه الشيء المضر وقد لا تقبلون على ذلك  
 اقبالكم على هذا

يأخذ ابناءكم جهلاء اغبياء متوحشين قذرين عقولهم مكبلتة بالالوهام والخرافات  
 قلوبهم مطبقة نفوسهم منحلطة . ويرجعهم اليكم متعلمين مستنيرين متمدنين نظيفين

عقولهم مطابقة وقلوبهم مقنونة ونفوسهم راقية . يأخذهم متعصبين مستبدين ظالمين ويرجهم متساهلين متساوين عادلين . وابناؤكم قلماء يبرون به او يهتسون بتعزيريه حتى ولا بصيانة سمعته . يأخذ بعض اثنيانكم ووجهانكم الى اوربا فيذلونه عند الاجانب وفي ما هو يفاخر بجدله وجهاء البلاد يتعمدون هم ثم صيتكم ويسببون له اللعنة بتهتكهم والاحتقار بختهم . يأخذ بعض اذ كيانكم ليرتقوا ليتأهلوا لخدمة الامة ليتعلموا ويرتقوا ليقبوا على نشر افكارهم وبث معارفهم حيث لا مراقبة ولا استبداد . فيتهاختون على الملاهي وينغمسون بالملذات فينتحرون بالتدريج مع المهران

اما آن لكم ان تنسوا البحر اتعابه . ان تسكتوه عن الامتكم . ان تحبوا اليه مداومة المدنجياته وتبرهنوا مقدرتكم على تمييزه وادائه من سميتها ورافعها من ضارها . اما آن لكم ان تحفوا عنه افعال بضائعكم وترعوا العطن وتحلجوه وتغزوه وصوفكم وتتجرها وحريركم وتستخرجون معادنكم وتوفروا زروعانكم وتتقدموا بالاصناف ؟

اه منكم ايها الاعاقا . يا من نعمتم بدستور يحمي الامة ولا يد لكم فيه

وتتعتم بشار اتعاب غيركم دون ان تعرفوا . يا من تسمعون بحسن نتائج تلك المذابح الغضبية التي اسالت الدماء كالانهار ولم يهرق منكم نقطة دم . يا من لم يذق سبك البوسفور طعم ابنائكم ولا عانيتم عذاب النبي الى قرآن . ولا خنت منكم حر في قلعة . يا من نشأ منكم اعوان لعبد الحميد على الظالم ولم ينههم قصاص عادل . يا من جائتكم النعمة دون ان تسعوا اليها وفاجأتكم في حين كاد فيه اليأس يستولي عليكم فافرجت عنكم واطلقت لكم حرية الفكر والقول والعمل وانتم لاهون غافلون . اما آن لكم اليوم ان تقدروا النعمة قدرها وتذرها حقها ولو بمواطفتكم فقط . ستان . مرات على اطلاق حريرتكم افبا شعرتم بعد بشي . من عقلة الحرية . اما ادركتم قوتها . من ينظر الى جمودكم في عيدها الاخير ولا يحزن . من يمن النظر بعدم اهتائكم بالعيد ولا يأسف من يراكم كالاصنام في حين تهلل فيه الجباد ولا يبكي . اي ذهول قد استولى عليكم يا قوم . الاجل وضائف روايتها تسد الرمت حنقهم على الدستور . اتوهمون المر قائما بالاموريات . ما ذنب الجوهر اذا مسه العرض . اتكروهون الحق لانكم لا تحسنون التمتع به . الذنب ذنبكم فلا تياسوا . لا ترجوا المستحيل ولا تتطلبوا الطفرة فانها محال . وسريع النسو سريع العطب

كأنكم من غير هذه البلاد بل كأنكم اعداء لها . البلاد بلادكم يا قوم فلم  
تحتقرونها اما سمعتم ولا علمتم كيف يجتني الفرنسيون والاميركان باعبادهم الوطنية .  
انتم يا من تقادونهم بكل السيئات افما تقلدونهم باقاء الشعور الوطني . يا من تهددتم  
البلغار واليونان وملائم الجوسياحاً ضد الطامعين باهلاك الدولة هل تتبعون الاقوال بالاعمال؟  
كأنكم واهم الحق اطفال يا منكري فضل هذا الانقلاب يا من تدعونه لغواً لأنكم لم  
تبلغوا بعد مقام الانكاييز والفرنسيس يا من يتخاون الدستور وحده مرقياً لكم وكبساط  
الريح ناقلكم من الظلمة الى النور يا من تظنون تغير الاخلاق سهلاً والاصلاح هيناً ليناً  
وانتم لا تغيرون من عاداتكم شيئاً ولا تصلحون بانفسكم ولا خلة . اين اتعابكم في  
سبيل الامة اين اكتساباتكم اين عواطفكم ؟ اين انتم من الاصلاح ؟ اذا حققت  
الشكوى فهي للتركي والارمني او للبلغاري واليوناني اما السوري فليسكت لانه ما عمل  
شيئاً مذكوراً ولا ضحى عزيزاً ولا شيئاً

اقلقتم البحر بضواكم . ازعجبهوه بتذمركم فام كل هذه الحركة العديئة البركة . كل  
منكم يقر بفساد الاخلاق وبانحطاط النفوس ولكن الامامين على تهذيب اخلاقهم وترقية  
نفوسهم اندر من النادر . كل يرى مفاسد القرية وسيئات التعليم عامة في الامة والان  
لا يؤل والدون يسبون تربية ابنائهم ويكتفون من تعليمهم بقواعد اللغات ويثرون الصبيان  
على البنات بكل شي . حتى باقرية والتعالم والتهذيب

يعتر الجار بعز مجاوريه وانتم تذلون جاركم باحناء رقابكم تعير الله . افما كفاكم  
ذلاً . فرق العدوان بين ابنائكم باسم الدين والدين منه برأ . بعد الجهل بين قلوبكم  
وكلا ينجح فيها عاطفة التألف . والقلوب مخلوقة للحب . استغراكم الزوق التافه فاهلتم  
القائم اثنين . مهمهم ورأ الدينار ولم تحفلوا برأهته كأن السعادة محصورة فقط بالمال حتى  
بناتكم تسلبونهن الارثراق في العربة دون ان تهينوهن بالتعليم والتهذيب لاحسان الجهاد  
في سبيل الحياة وتوهمهم المجد والكرامة الغربي والذل والامتحان لكم . ختمت العلم والكمال  
به والجهل والنقص بكم . ظننتموه قادراً على كل شي . وتوهمتم انفسكم عاجزين  
عن اقل شي . فالى م هذا الاعترار فلدقوه بمادته على علاتها لم تقبستوا الضروي مثل  
الكمالي . لم تميزوا بين النافع والضار لم تعلموا بعد كيف تجتهدون وكيف تتباحثون وكيف  
تؤلفون الشركات والجمعيات وكيف تنفقون وتتعدون . ومع كل ذلك تتوهمون انكم

بلغتم حدّاً لا يمكنكم ان تتعدوه . وما ذلك الا من عدم الثقة بالنفس ومن عدم التربي  
على الاستقلال الشخصى وعدم النشوء على الحرية بالفكر والقول والعمل  
المرأة المارة . ان المرأة السورية معظمها لاتزال جاهلة غبية . لا تزال  
اسيرة مظلومة . لا يمتد بها الرجل ولا يهتم بترقيها . ولولا الافرنج لما تعلمت  
فتاة . حتى ان المتعلمات فقط باللغات مكثفيات . والراقيات جيداً لا يزلن قليلات  
نادرات . ينكر رجبكم على شريكة حياته الحق ويستبد بها يحتمرها ويتعها بمن  
بناته ويزدري بهن ولا يهتم الا بتدوير انفسهن دون تعليم ولا تهذيب ويخال  
واجباته قائمة بحلب الطعام والاشباب لهن ويعامل شقيقانه معاملة الخادمت .  
وقد يدفعهن الى الشغل ليأكل من جنى اتعاهن بلا مروءة ولا عزة فضلاً عن  
تبرج المرأة الفائق الحد وتلاهبها بالسفاسف والخزعبلات واقتباسها مفاصد الغرب  
وترفعها عن تربية بنيتها وادارة بيتها . واعتدادها بنفسها دون اهلية ولا استحقاق  
وتطلبها التفوق على الرجل والاستثمار بشؤونه

مدارسكم قاصرة عن كفاية الامة احتياجاتها

صحافتكم فوضى لانطاق لها

جمعياتكم مبخنة لانظام فيها ولا ترتيب الاما كتب على الورق

حكومتكم عسش فيها الخلل والتقصير

.....

وهنا سكك الاله - ليها السادة والسيدات - فتنفت الصعداء ثم تناكت نفسي  
واستجدمت قوتي ورفعت انظارى اليه وشكرته شكراً جزيلاً وقد بلغ منى التأثر حدّه  
فدمعت عيناى

فقال لي - لا تبك يا ابن الانسان ولا تعزن ليها السوري . حبيبك ما تأثرت  
ويكفيك ما عانيت الان . فاذا شئت اقتنم هذه الفرصة لخدمة مواطنيك فاروي لهم  
حديثى معك . لعلمهم بهم يعتبرون . وخبرهم ان البحر يفت منهم ولهمم اذا لم يحسنوا  
احوالهم فلا مجاعة نادون

قال هذا وتوارى عن بصري فهدضت خجلاً من نفسي بحالة نحن فيها . وهدت  
 مثلاً بقول نبتون . . .

وقد آتني منها بالاكتر . وآخذته لنا ؟ على امهالنا امر المرأة واستبدادنا بها . على جهلها  
 ونباوتها وعلى اثارنا الصبيان على البنات بكل شي . حتى بالقرية والتعالم والتهديب . وقول  
 الحق يجرح والمرح يؤلم

وماذا اقول ايضاً عن قوله « حتى بناتكم تزلجنها للارتزاق في العريسة دون ان  
 تهنوهن بالتعلم والتهديب لاحسان الجهاد في سبيل الحياة »

ماذا اقول . وعندنا ايضاً يتامى لانصير لمن الالة والجنون . يتامى تتوفر فيمن  
 القوى الطبيعية العظيمة ويجرم من انفس الالدين والاقرباء الاعنياء . يتامى مستعدت  
 بالقطرة ليصرت مظالم في العالم يجرحهن فقط علم وادب . يتامى قد ينشأن على الفساد  
 فيصافى الارض فساداً ولما يقينا فسادهن الا التعالم والتهديب .

والتيمة منهن يناسبها التمثل بقول الرافي

قدمت على الدنيا فعدوا ولادتي      كما زاد في المرضي قدوم سقيم  
 وكنت لهم همماً ثقيلاً على الوري      وهذا الوري لو ينصفون همومي  
 نسوا بومنا حتى نسينا نعيمهم      فيارب ما حكم القضاء بظالم  
 فيارب ان كان النعيم كما ارى      فساداً فان البومس خير نعيم

ولكنني الآن في حمص لا اقول شيئاً وقد رايت اليوم يتامى من فقر بنابه واحاق  
 بين الشقاء من كل جانب . يتامى ابت حيثكم باقوم ان تتحركون عرضة لهذا البومس  
 العظيم . فاقدم هذه الجمية الكريمة فدت اليهن يد الاحسان وانتقلتهن من وهادالتعاسة  
 بالقرية والتهديب . جمعية رايت الريم من اثار فضلها ما ايد لي ما كنت اسمعه عن  
 سخاكنم في سبيل الخير رتالكم على الاحسان . جمعية تقوم بواجباتها الانسانية خدمة  
 لبنات الانسانية .

فهنكنم يا سادتي بحجيتكم بل بحجياتكم . واسأل الله ان يوفقها ومن يساعدها  
 غير اس فضل ذي السيادة رايمكم الفضال فان اثاره قدل عليه وهو بها غني عن  
 الوصف والتبيان . فعليه وعليكم اجمل سلام